بوح أنثى

رائدة أبو صوي

دار الجندي
للنشر والتوزيع

دار الجندي للنشر والتوزيع
القدس
٠٠٩٧٢٢٣٤٠٠٣٥
info@aljundi.biz
www.aljundi.biz

*

بوح أنثى

رائدة ابو صوي

*

الطبعة الأولى (٢٠١٤)

بوح أنثى

رائدة ابو صوي

أحلام كانت وما زالت صديقة عمري وصباي، روت لي قصتها التي سأروي بعضا منها على مسامعكم قالت لي:

أقص عليكم صديقاتي حكايتي، أنا أحلام لا أشبه نفسي اليوم على الإطلاق، أحلام التي فقدت كل حلم، أعتقد أنها غريبة عني بل أنا متأكدة أنها لا تشبهني أبداً، أحلام الماضي هي ابنة الثمانية عشر عاما، ولن أقول ربيعا؛ لأنهم وضعوها في خريف بل في بحر هائج.

كان حلمي أن أكون إنسانة ريادية، أسجل على صفحة التاريخ عملا يضعني في خانة صُنَّاع المجد. أحلامي كانت يومها كبيرة، ولكن ظروف الحياة التي وضعتُ داخلها كانت أكبر مني فحطمتني وأصبحت في مهب الرياح.

اجتُثَّتْ أحلامي من جذورها، تعرَّيتُ من أحلامي كما تتعرى الأشجار في فصل الخريف، فأصبحت كأنني أنثى طموحه توضع في قوقعة وتلقى في أعماق المحيطات .

أحد المحاضرين في الجامعة الأردنية، عندما علم أنني تزوجت، قال لأمي بالحرف الواحد: "لقد ظلمتم أحلام. فأحلام لا تجود بها الحياة دائما، هي إنسانة وشعلة متّقدة من النشاط والعطاء والحيوية، تقذفون بها في بئر من الظلام

والعفونة والقسوة والصقيع.«
مرات أتلقى الضربات من حماتي، ومرات أقاسي من بنات حماتي، وأحيانا من غضبي على نفسي لأنني أخطأت الاختيار.
كنت أشعر أنهم يمزقون روحي بمخالبهم وأنيابهم، وكانت دمائي تنساب بريئة لا أقوى على الصراخ أو العويل.
هذا المشهد يتكرر كل يوم. بل كل صباح ومساء، حتى أحلامي وأنا نائمة كانت صورة عن واقع مضطرب.
كنت أواجه المواقف التي تعترض طريقي بأسلوب مؤدب، كنت إنسانة مثل قطعة ماس في محيط عدائي، مع فئة من الناس لم أشاهد مثلها قسوة خلال حياتي في عمان أو قبلها. في الفترة التي قضيتها عند حماتي وبناتها خسرت من وزني عشرين كيلو غراما، خلال أول ستة أشهر من وجودي عندهم، أحد الأصدقاء قال لي عندما شاهدني:
"لازم حماتك وبناتها يفتحوا مركز لتخفيف الوزن شكلهم بحرقوا السعرات الحرارية بطريقه جهنمية لمن يعيش معهم.«
كرهت نفسي وحالي، وحقدت روحي على ذاتي، وكانت نفسي لوّامة على نفسي؛ صبرت وتصبّرت، لم أصرخ ولم

أتمرد، وأتساءل: لمَ لا تقولي لا ومليون لا؟ لماذا رضخت للأمر الواقع المزري، ورضيت بهذه الحياة المرة مع هذه الأسرة الظالم أهلها؟ لماذا كنت راقية ومؤدبة ومتسامحة مع أسرة حاقدة وجاهلة؟

كنت أعيش غربة في داخل أعماقي ونفسي، لكنني كنت مؤمنة بأن الله –عز وجل– لا بد يوما ما سيتلطف بي، ويخرجني من هذا البئر القذر الذي وجدت نفسي داخله، بئرٌ عميق، لا أملك وسيلة للخروج منه سوى الصبر .

كانت حياتي عبارة عن موجات قوية جدا تحطم كل ما يمر بها من كائنات حية، وكنت أقف أمامها كالصخر. ولكثرة الإهانات التي حاقت بي من حماتي، أدركت من خلالها أن حماتي كانت تغار مني كثيرا، ففي إحدى الليالي عندما كنت أسكن في الطابق العلوي عندهم في ليلة شتاء شديدة البرد، وكانت الأمطار فيها تطرق نافذة غرفتي بشدة، جاء عمّي؛ أي والد زوجي إلى بيتي ليطمئن على أطفالي الصغار، الذين هم أحفاده، وإذا بها تلحق به وتصرخ عليه بصوت عالٍ، وتقول له:

شو بتعمل عند أحلام؟ انزل بسرعة على الدار، ونظرت لي نظرة كلها غيرة وحقد. كنت أرتدي حينها منامة لونها

زهري، وكانت تقاسيم وجهي تميل إلى اللون الوردي، وما كان من عمّتي إلا أن أغلقت الباب خلفها بشدة وعنف، ونزلت إلى بيتها مسرعة غاضبة، وفي صباح اليوم التالي ألقيت علي عمّي السلام والتحية، لكنه لم يرد علي وأدار بوجهه عني، وأخذ يختلق الخصومات معي، حينها أدركت أن زوجته قد لقنته درسا قاسيا في تلك الليلة، وقالت له إمّا أنا وإمّا أحلام.

وبالنسبة لتربية أبنائي فحدِّث ولا حرج، لم أمتلك أية صلاحية يوما لتوجيههم، فكلما أردت أن أقوم بعمل أو توجيه نقد بنّاء لأبنائي كنت أصطدم بالانتقادات الهدَّامة، فعلى سبيل المثال عندما كنت أغلق باب بيتي على أطفالي لتدريسهم، كانت حماتي تستغل الوضع وتشوهه، فتدّعي بأنني أحاول منعها من رؤية أحفادها، كنت أحاول إقناعها عكس ذلك، لكن المشكلة أنها لا تتفاهم بالصوت العادي بل بالصراخ، تعبت من هذه الحياة، شكوت حالي لأهلي، وأهلي مشكلتهم أنهم لا يحبون الطلاق.

أتعرفون أن أكبر معضلة تواجهها من ترتبط بشخص لم تكن تعرفه مسبقا قبل الزواج، ولا تراه إلا خلال فترة الخطوبة، وترى أن المحيطين بها لا يراعون شعورها؟

فمطلوب منها أن ترضي الجميع والمحيطين بها، يقولون "هدول أهل ببعض ما في أي إنسان يتدخل ليقول للمخطئ أنت مخطئ" وأكثر كلمة كانت تضايقني من الأقارب في بلدتي: هؤلاء الناس من قبلت الارتباط بهم مسبقا، وأصبحوا لك دار عمك، من الخطأ أن تقولي أنكِ تعاني عندهم . علما بأن حماتي كانت من النوع الذي يحب النميمة، وكانت تتسلى باستمرار بإثارة الانتقادات، وتدّعي بأنني أقل من مستواها ومستوى بناتها، كانت تقول لي أنت لست أفضل من بناتي، أنت بنت مدارس مش بنت تخدم بيوت. كانت متناقضة جدا لدرجة أنني أصبحت لا ادري كيف أتعامل معها. لها وجهان: أجدها مرة مبتسمة أمامي، ومرة أخرى عندما يحضر زوجي من عمله تعقد جبينها، وتنظر إلي نظرة الغلّ والحقد، فالحياة مع حماتي جحيم لا تطاق.

أحيانا كنت أدخل إلى الصالة لآخذ لأطفالي الحليب من الثلاجة، فكانت تمنعني من فتح الثلاجة. مشكلتي تكمن في أنني كنت إنسانة راقية وحضارية في تعاملي مع الغير، ومرهفة الإحساس[أ] وكم من الليالي نمت وانأ ابكي من شدة الظلم .

ومن المواقف التي أتذكرها أنه في أحد أيام الصيف الحار جدا، حيث كنت أروي حديقة المنزل: النعناع، الورد، والبقدونس، وأشطف الدرج، وبعد أن انتهيت من ريّ تلك المزروعات الموجودة أمام بيت حماتي، جلست على حافة الدرج، وإذا بأفعى صفراء تتلوى بالقرب مني، وتنزل الدرج، ولأول مرة في حياتي أشاهد أفعى، دخلت مسرعة إلى حماتي، وأظهرت لها خوفي من تلك الأفعى، فقالت لي: يا ريت الأفعى لدغتك وأراحتنا منك.

كلماتها هذه كانت خنجرا مسموما دخل أشرعة قلبي، من الصعب جدا أن يعيش الإنسان في بيت غير مرغوب وسط أناس لا يقدِّرونه.

وأعود إلى الماضي، وأنا أتذكر عندما جاء والد زوجي لخطبتي، حيث قال لأبي:

ابنتك ورده سأعاملها كما أعامل الأزهار التي أمام بيتي.

ومن المواقف التي حصلت معي في هذا البيت النكد أيضا، أن ابني كان يلعب في يوم من أيام الصيف على فرشة ملقاة على الأرض، وفجأة خرجت أمّ أربع وأربعين من بين البلاط، لونها أسمر، ويبلغ طولها حوالي ثلاثين سم، ولولا رحمة الله -عز وجل- لكان ولدي في عداد الأموات .

ومن المفارقات أنني كنت وأنا طفلة أحب اللعب مع الأولاد أكثر من البنات، فكانت شخصيتي قوية، غير أنني اليوم وأنا بين هذه الأسرة بتُّ مهزومة، وكانت اللعبة المفضلة لدي لعبة قنطرة الحجارة، فكنا نبحث عن بقايا البلاط المكسر، ونرتبه فوق بعضه البعض كقنطرة[1] ونصنع كرة من الجرابين القديمة، وعن بعد كنا نرمي بهذه الكرة على الحجارة ومن يستطيع إسقاط الحجارة فهو الفائز بيننا.

ومن الألعاب التي كنت أحب أن ألعبها، مسحوق الكبريت، فكنا نحضر عيدان الثقاب ونزيل مادة الكبريت الموجودة على عيدانها، ونحفر حفرة نضع فيها ذلك المسحوق، وندقه بواسطة مسمار، ونطرق عليه فيصدر منه صوت انفجار، كنا نستمتع بهذا الصوت فهو كما الألعاب النارية هذه الأيام.

أما الليل في طفولتي وفي قريتي قبل الزواج فكان جميلا وخصوصا عندما كنت أذهب إلى القبور، وأشاهد الشموع الصغيرة المضاءة ليلا، وأيضا كنت أتمتع برؤية نوعية من الديدان التي يكون في قفاها ضوء أخضر، فلقد كانت جميلة جدا في غمرة الليل، وكنا نطلق عليها اسم: "ضو الغولة".

ومن أنواع الديدان التي كنت أشاهدها في أحضان الطبيعة في طفولتي أيضا (عصى النبي موسى)، هذه الدودة سوداء اللون لم أكن أحب منظرها. فهو ليس جميلا.

وأمّا الألعاب التي كنت ألعبها في عمان، وهي مختلفة عن تلك التي كنت ألعبها في بلدتي فأهمها: لعبة (الغماية) و(عالي وطْوط) و(حاكم جلاد) و(الحبله). وكان الرقص من هواياتي. وأتذكر في أحد الأيام أثناء فترة الاستراحة في مدرستي التي كانت عبارة عن عمارة كبيرة، وكانت الساحة التي نقضي بها الاستراحة في التسوية أول طابق، حيث كنا نمارس بها الألعاب الرياضية، مثل كرة السلة. وكرة الريشة. والبولي بول، وأتذكر في الاستراحة أن إحدى الصديقات حملت علبة الصفيح التي كان عامل المقصف قد ألقى بها في الساحة، وأخذت تطبل، وصديقاتي صرن يقلن لي: يا الله يا أحلام خلينا نشوف الحلو وهو يرقص، ومع الإصرار الذي وجدته من صديقاتي. وجدت نفسي أتوسطهن وأرقص وأزغرد، ونسيت حالي، وفجأة شعرت بيد ناعمة تمسك برقبتي، فالتفت فإذا بي أشاهد مديرة المدرسة، فقلت في نفسي: وقعتُ وما حدا سمّى عليّ كما يقولون.

قالت لي المديرة في غرفتها: أحلام أنت مطرودة اليوم ولن ترجعي إلى المدرسة دون أن يكون ولي أمرك معك، رجعت إلى البيت وطبعا كنت واثقة من موقف والدي المناصر لي والمطمئن دوما لمواقفي، حيث كان يحبني كثيرا، فأخبرته بما حصل معي، فقال لي:

لا تهتمي يا ابنتي. فسوف آتي غدا برفقتك إلى المدرسة.

وفي صباح اليوم التالي ذهبت إلى المدرسة برفقة والدي، وعندما دخلنا غرفة المديرة، قالت لأبي: ابنتك مشاغبة.

ابتسم والدي في داخله، فهي لم تأتِ بشيء جديد، فأنا كنت فعلا مشاغبة، لكن نشيطة جدا وذكية.

فقال والدي لها:

ابنتي مجتهدة.

فطلبت المديرة مربية الصف الخاص بي، وسألتها عني، فقالت لها المربية:

أحلام طالبة متفوقة وخلوقة. ذُهلت المديرة، وقالت لي: أنتِ! فنظرت إليها دون أن أتفوه بأي حرف، وبعد هذا الموقف تغيرت طريقة تعامل مديرة المدرسة معي، وعينتني حارسة للنظام في ساحة المدرسة، وعلى الدرج أثناء صعود الطالبات إلى صفوفهن.

ومما أتذكره في مدرستي أن كان أمامها محل لبيع الساندويشات (الفلافل) وكانت المرأة التي تعد الساندويتشات مبتورة أصابع يدها اليمين. وكانت تفتح رغيف الساندويش وتسحق حبات الفلافل بيدها مبتورة الأصابع، وكنت حينها أشعر بالقرف. فلا أدري لماذا، وربما لأنها لم تضع في يديها كفوفا.

وكانت معلمة التدبير المنزلي في مدرستي تعشقني، فكانت لا تطلب من أية طالبة مساعدتها في إعداد الكيك إلا أنا، وعندما كانت تنتهي من إعداد قالب الكيك كانت تدعوني لمشاركتها في تناوله.

أتذكر هذا قبل الزواج التعيس، فمن أجمل الأيام التي عشتها وشعرت أنني كنت كما أحلم بأن أكون امرأة ريادية، ففي أيام كثيرة، حيث في طريقي إلى مدرستي من جبل المريخ، كنت أسير بين المنازل، وأمر من أمام أحد المقاهي في جبل النظيف، قبل وصولي إلى المدرسة في منطقة المصدار، فكان الرجال الجالسون على الكراسي أمام المقهى يُسمِّعونني أجمل كلمات الغزل وأرقها، وبصراحة كنت أطير من الفرح عندما يقول أحدهم مثلا:

حرام هالحلو يمشي على الأرض، أو أول مره بنشوف

القمر بطلع بالنهار، وفي مرات كثيرة عندما كنت أمص البوظة أسمع تعليق أحدهم: يا ريتني بوظة في ثمّ الحلوة.

وكان موقع مدرستي في وسط منطقة المصدار، وهي منطقة نشاط تجاري، تكثر في جنباتها المحلات التجارية، وخاصة محلات بيع الملابس المستعملة، ومحطات سفريات إلى السعودية والعراق، تزينها دور العبادة من الكنائس والمساجد.

وكان تحت المدرسة مكان لبيع الكاسيتات، الشاب الذي يبيع الكاسيتات فيه يحبني حبا جما، فيسمعني أحدث ما تصله من الأغاني، وخصوصا أغاني وردة الجزائرية وهاني شاكر وأحمد عدويّة، وكانت الأغنية التي يرفع فيها صوت المسجل عالياً أغنية أحمد عدويّة (يا أهل الله يا إللي فوق ما تطلوا على اللي تحت) وكنت وأنا داخل غرفة الصف ابتسم وأنا استمع وأستمتع لهذه الأغنية، فمصدرها العاشق الولهان.

وفي أيام الشتاء كنت أجد نفسي غارقة في السيول التي كانت تندفع بشدة من جبل المريخ والوحدات والأشرفية، وجبل النظيف مرورا بالمصدار إلى سقف السيل، والمياه كانت تسيل كالشلال، كنت أجد متعه كبيرة في الاتحاد

مع الأمطار، فهو علامة بشر وخير، وكان المشي تحت المطر يسعدني كثيرا، وأنا أرفع فوق رأسي المظلة التي أحملها بلونها الأزرق الجميل.

ومن النشاطات المدرسية التي كنت أعشقها، تلك الصور التي شاركت في تمثيلها ألا وهي مسرحية تاجر البندقية، حيث قمت بدور التاجر "باللغة الانجليزية".

في مدرستي كان طيف الألوان السبعة، فمن مختلف الطبقات الاجتماعية كان يوجد فيها، وطالباتها من مختلف المدن والقرى الأردنية والفلسطينية، ومن سوريا وكانت لدي صديقة فلسطينية قادمة من قبرص.

ومن أنواع الحلوى التي كنت أحبها تناولها حلوى الدحدح بطعمه اللذيذ وألوانه العذبة. كنت أبتاعها من على عربة في سقف السيل، وكنت أتلذذ بطعم الذرة المشوية اللذيذة من على عربة في نفس المكان، وأحيانا كنت أذهب إلى مطعم الأردن؛ لتناول الشكولامو، وبعد ذلك كنت أذهب مع صديقاتي إلى سينما بسمان أيام الخميس.

ومن الأفلام التي شاهدتها في تلك الفترة وأحببتها كثيرا: فلم اذكريني، وحب أحلى من حب، وأفواه وأرانب، والسقا مات، وحمى ليلة السبت.

وعندما كنا نغادر السينما كنا نستمتع برائحة البذر المحمص على الصفيح عند محمص في شارع بسمان في عمان، هي أيام جميلة وذكريات عذبة لا تفارق مخيلتي.
إحدى صديقاتي كانت لديها أمام البيت شجرة بيلسان، وكنت أقوم بعمل تنسيق باقة منها ومن الورد البلدي الأصفر والأحمر والأبيض، وآخذها إلى البيت وأضعها في مزهرية، لتكون على طاولتي التي أدرس وأذاكر عليها.

نافذة غرفتي كانت تطل على شجرة لوز مخملي[1] وكنت أعشق رائحة زهر اللوز في الربيع، فسبحان الله، ما أطيب طعمه! خاصة وأنت تقطفه بيدك عن شجرة.

ومن ذكرياتي الجميلة في المدرسة أنه في إحدى الاحتفالات المدرسية، كان مطلوب مني القيام برقصه هندية، فأخذت الساري الهندي الخاص بأمي، وكان جميل المنظر أحمر مرصعا بالقصب الفضي المتناسق، وعندما انتهى الاحتفال خلعت الزي ووضعته في حقيبة المدرسة، وتركت الحقيبة في الصف، وذهبت لرؤية مربية صفي، وعند عودتي للصف فتحت الحقيبة لأعطي إحدى صديقاتي كتاب اللغة العربية الخاص بي، لكنني فوجئت بأنني لم أجد الثوب الهندي، والمشكلة أن هذا الثوب عزيز جدا على والدتي

وباهظ الثمن، واحترت في الأمر، وتساءلت: ماذا أفعل يا ترى؟ والمضحك في الموضوع أنني عندما رجعت إلى البيت اختبأت تحت السرير خوفا من العقاب، وحتى لا تسألني أمي عن الساري، وعندما بحثت أمي عني ووجدتني وسألتني عن سر اختبائي، أجبتها بأني أضعت الساري. دُهشت لرد فعلها عندما قالت لي: الله يعوّض يا حبيبتي.

وننقل بعض الصور التي واجهتني في الكرك، حيث تزوجت في بيت من تقدم لخطبتي، وهي كثيرة وعجيبة في ظل هذا البيت...حدَّث ولا حرج، ملؤها الغيرة والحقد والحسد، والشيء الوحيد الذي كان يلطف مرارة أيامي هو وجود جدتي والدة أمي تلك الأيام في نفس تلك المدينة، حيث كنت أذهب إلى بيتها الجميل المطل على القلعة، قلعة الكرك التاريخية، وكان أمام بيتها بئر وعليه دلو ماء والى جانبه شجرة ياسمين أوراقها بيضاء جميلة جدا، وكنت أقوم بجمع زهرات الياسمين وأعمل عقدا منها أضعه في جيدي.

وكانت جدتي تحضر اللبن البيتي اللذيذ، ودائما تضع الطبق الملون وعليه الدبس والطحينية والجبنة المغلية والمرشوشة بالمستكة والقزحة والخبز الذي كانت رائحته تفتح النفس.

وكان عند جدتي على الطاولة مذياع صغير (ترانزيستور)، كنت استمع منه لأغاني أم كلثوم وكنت أظل أقول لها بيتك حلو يا ستي.

رائحة بيت جدتي كانت جميلة جدا، خليط من الياسمين ورائحة الرطوبة المنبعثه من البئر،

وعندما كنت أرجع إلى بيتي الذي كنت أحلم بأن يكون مثل باقي البيوت، كنت أحترق من داخلي، وكانت أبشع صورة تتمثل في مقابلة حماتي لي، صورة وظلمة في غاية اللؤم،

كنت أقول لها مساء الخير امرأة عمي وابتسامتي على وجهي، فترد بدون نفس:

أهلين ، وتنظر إلي نظرة غلو وحقد.

زوجي كان يجلس محاطا بأخواته وتفاجأ بي أيضا.

كنت أتمنى أن يحتضنني أو يقول لي وين هالغيبة حبيبتي، ليش إتأخرت؟

كنت أشعر بعدم رغبتهم في وجودي.

هذه الأيام زوجي يعشقني جدا، ولكني لا أنسى مواقفه الماضية.

أكره نفسي، لأني تحمَّلت هذا الوضع القاسي الذي عشت

فيه.
أيام الشتاء وأنا عروس كنت أجلس مع أهل زوجي في الصالة التي تتوسطها ثلاث غرف: غرفة حماتي، وغرفة بنات حماتي، وغرفتي.
كنا نجتمع حول المدفأة جميعنا.
كنت أضطر إلى البقاء معهم إلى ساعات متأخرة من الليل رغما عني.
وإذا حصل ودخلت إلى غرفتي، فكانوا يقولون: أحلام ما بتحبنا ولا بتحب الجلوس معنا.
كنت أحيانا أبقى في غرفتي ساعات وحيدة، وزوجي يلهو مع أخواته ووالدته، حيث كان يخجل اللحاق بي وأخواته ووالدته ساهرات، ومن أصعب المواقف التي يمكن لأية امرأة أن تتعرض لها أن تعيش مع العائلة، وخاصة مع عائلة لا تحبها، والسكن من السكينة، وأنا كنت افتقدها كثيرا.
كنت أقابل هذه المواقف بالصمت، والصمت أحيانا كثيرة جدا يحتاج إلى شجاعة أكبر من الكلام، فالصمت حكمة وقليل فاعله، وكنت أحترق كل يوم ألف مرة ومرّة، وعمي كان إنسانا مغلوبا على أمره، فوجد لنفسه أن يقف إلى جانب زوجته وبناته أفضل وأسهل له من أن يقف إلى

جانب أحلام. وأحلام كانت تعيش حياة مأساوية جدا. فأشرعة أحلامها تحطمت قبل أن تبدأ بالإبحار.

وموجات الحياة التي مرت بي كثيرة، ولن أتطرق لجميعها، بل سوف أرصد بعضا منها، واليكم بعضها، بعض منها فقط، بعض من صور موجات حياتي، حياة أحلام:

الموجة الأولى

الحياة بكل ما فيها من تناقضات كأمواج بحر تضرب الصخور بشدة، كانت في تحدٍ معي ولا تزال، ولكنني كنت أحلم دائما بمستقبل أفضل، واجهت التحديات بطريقة غريبة لا أعرف كيف أصفها، لقد كنت أريد أن أكون أمّا مسئولة عن أبنائها وأنشئهم تنشئة اجتماعية سليمة، ولكن في خضم هذا الكابوس الذي كنت في داخله وكان في داخلي، كنت أشعر بأنني كالماشي على خيط حرير بين جبلين، ومطلوب مني الوصول إلى طرف الجبل الآخر دون أن ينقطع الخيط.

فحياتي شريط من الذكريات والأمواج العاتية، فعندما كنت في سن الثالثة من عمري تعرضنا للنزوح والخروج من بيتنا إثر حرب عام ألف وتسعمائة وسبعة وستين، عام النكسة، فكانت ذكرى من أقسى الذكريات، لا أدري لماذا؟ ولعل فقدان الوطن هو الطامة الكبرى، فقد سرت الإشاعات التي تداولها أهل قريتي والتي زرعت الخوف

في قلوب الناس من أنهم سيتعرضون لنفس المصير الذي تعرض له أهالي قرية دير ياسين. فتركنا بيتنا الجميل الذي كنت استمتع باللعب تحت شجرة التوت في حوش الدار والياسمينة التي كنت أعمل منها عقدا جميلا أحيط به رقبتي، وكانت قريتي في طولكرم هي مدرج طفولتي، فلقد كنت طفله ذكية جدا، قالت لي أمي يوما بأنني في أحد الأيام عندما كانت أمي تحممني والبابور إلى جانبها، إذ طرقت الباب إحدى الجارات القريبات من بيتنا، وعندما دخلت الجارة، وأنا بطشت حمام التنك صرختُ بالمرأة، وقلت لها: قولي لي نعيما، فصدمت هذه المرأة من فصاحة طفلة في الثالثة من عمرها.

المهم تركنا بيتنا واتجهنا إلى عمان سيرا على الأقدام ... والجهل كان سيد الموقف. وأتعجب الآن كيف أننا تركنا البيت والأمن وخرجنا إلى الشوارع ...إلى طريق المجهول، فلا ندري ماذا يخفي لنا القدر، وعندما وصلنا مدينة أريحا مشيا على الأقدام، وارتحنا فيها قليلا ثم انتقلنا للجانب الآخر من النهر...نهر الأردن. أو كما تسمية صاحبة الصوت الملائكي الرائعة فيروز (نهر الأحزان). أمي كانت تحملني على كتفها، كانت تحبني كثيرا، أحد الجنود

العراقيين أخذني وحملني لترتاح أمي قليلا وتستطيع أن تهتم بأخواتي الأخريات، وساعات النكبات والكوارث توَحد المشاعر والأحاسيس، وبعد معاناة شديدة وصلنا إلى عمان، والأردن بلد الكرم والخير والمحبة، أحببته كثيرا، وجدت نفسي في أحضانه، أحببت ترابه وأهله، فلم أشعر بالفرق بيني وبين أهل الأردن على الإطلاق.

وكانت أحداث شهر أيلول مؤلمة، ولكنني لم أستطع أن أجد نفسي غريبة، فكنت باستمرار أقول أنا أحب الأردن، فلسطين أمي الحقيقية، وعمان أمي الروحية، فجسدي في فلسطين وروحي في الأردن، فالأمّ ليست من تلد بل من تربي.

التربية التي تربيتها في عمان جعلت مني إنسانه عاشقه للحياة لجميع الناس، عمان كانت بلد الكل والجميع.

الموجة الثانية:

عشنا في بيت في عمان، وفي جبل المريخ بالتحديد، فهو مرتفع عن باقي الجبال في العاصمة عمان، في كثير من الأحيان عندما كان الغرباء عن عمان وعن منطقتنا يسألونني أين تقطنين؟ وأجيبهم: بجبل المريخ، كانوا يضحكون ويعلقون، قائلين: قمر وساكنه بالمريخ، غريب! المهم من الموجات التي لازالت تلمع كالبرق في خيالي أحيانا كثيرة هذه الموجة.

في ليلة من ليالي الشتاء العاصفة جدا، أن كان أحد الشباب الفلسطينيين هاربا من خدمة التجنيد الإجباري، وفي هذه الليلة العاصفة أراد زيارة والديه، وعند مدخل البيت كان التيار الكهرباء مقطوعا حينها، وعندما وصل جانب باب بيتهم، حاول أن يفتح الباب، فأصابته صعقة كهربائية، وفي صباح اليوم التالي وعندما أراد والده الخروج من بيته، وجد ابنه ملقى على الأرض ولونه أزرق، وفي هذا الأثناء كنت ذاهبة إلى مدرستي وشاهدت هذا الشاب، وسمعت

صوت الصراخ والبكاء الشديدين، مع برودة الطقس، فهو بلا شك مشهد لم يفارق مخيلتي، لقد كنت أحزن كثيرا في المآسي؛ لأننا غرباء خرجنا من بلادنا وكثيرون منا ماتوا في الغربة، وهذه المواقف هي التي جعلتني إنسانه عاطفية جدا، ونمّت أحاسيسي وكنت أحلم دائما بمشاهدة جميع البشر في راحة ومحبة.

حارتنا كانت مثل لوحة فسيفسائية جميلة جدا، فكانت هناك حارة للفنانين، وحارة للعاملين بالإعلام والأدباء والمثقفين، من جميع أنحاء الوطن العربي.

وكان لدينا جيران من لبنان ومصر وسوريا والعراق، عدا الفلسطينيين وأهل البلد الأردنيين الذين هم من العائلات المشهورة، ففي حارتنا وحيِّنا كانت تعيش عائلة الإعلامي رافع شاهين، والموسيقار روحي شاهين، والفنان محمود أبو غريب، والمطرب فؤاد حجازي، وكان أيضا من زوار حارتنا الفنان عبده موسى، وجميل العاص، والفنانة سماهر، والكثير الكثير من النشطاء على الساحة الفنية الأردنية، ناهيك عن عائلات الأردن الرائعة جدا، كعائلات من قبائل: العدوان والطراونه والعبيدات والحياصات والشوبكي والشوابكة، والكثير من العائلات التي كنت

أحبها.
حياتي كانت جميلة ونشيطة، فأنا إنسانة أحب الحياة، والحياة أحبتني، ولكن دخول أشخاص إلى حياتي قلب المعادلة بطريقة مؤلمة جدا.
على فكرة كنت كل يوم استقبل نهاري، وأنا ذاهبة إلى مدرستي بسيارة التلفزيون الأردني، فكانت القناة الأردنية هي الوحيدة، وفيها قناة أولى للغة العربية، وثانية للغة الانجليزية، إنها حياة بسيطة ولكنها حقا جميلة جدا.
لا أدري فأنا اشعر بالراحة الشديدة، فعندما أتذكر مراحل حياتي الأولى في الأردن، ومقولة الملك حسين -رحمة الله عليه- الجميلة والقوية، التي كان يرددها: الإنسان أغلى ما نملك. هذه الكلمات كانت مثل الإشعاع الذي يمد النبتة بالحياة.

الموجة الثالثة:

كان الحب هو الرابط الذي يجمع بيننا جميعنا في عمان، فلم أجد نفسي غريبة يوما في تلك العاصمة عمان، لقد كنت أشعر بالحنين للوطن، وعندما زرت فلسطين لأول مرة شعرت بالحنين إليها، وإلى أزقتها وحاراتها وتلالها، وإلى سكانها، أحيانا كثيرة أشعر أنني أضعت أجمل أيام حياتي عندما غادرتها متجهة مع زوجي لبدء حياة جديدة في الكرك، أحنُّ إليها دوما، خاصة في الاحتفالات باليوبيل الفضي، واليوبيل الذهبي، وجميع النشاطات في قصر الثقافة في عمان، كلها لا تزال تأخذني وتأسر فكري، فهي مهد صباي ومربع أحلامي.

الموجة الرابعة:

كان بيتنا في الأردن قبل زفافي حلقة وصل لجميع أقربائنا من خارج الوطن، يستقبل القادمين من الضفة الغربية، أو القادمين أو المغادرين لدول الخليج من الأقارب والأصدقاء، وكان الضيوف من الأقارب يقيمون عندنا مدة أسبوع وأحيانا أكثر.

وفصل الصيف كان موسما سياحيا، فهناك دوما ضيوف قادمون وآخرون مغادرون، وفي تلك الفترة كانت لدينا شجرة تفاح لذيذة الطعم، ظلها يعرش فوق خزان الماء الذي كان مبنيا من الاسمنت، فكنت أعلو خزان الماء حتى أصل إلى الشجرة وأقطف من ثمارها؛ لأقدمه للضيوف، وفي يوم من الأيام تسلقت الشجرة وقطفت التفاح، وعندما قفزت عن الشجرة كان كوب زجاجي مكسورا وملقى تحتها، فكانت إصابتي بالغة جدا، ولكن الله –عز وجل– لطف بي.وفي هذه الفترة توفيت صديقة غالية جدا على قلبي، وهي على مقعد سيارتها، لقد كانت من أقسى

الأمواج التي ضربت أقبية قلبي في حياتي، كانت تريد الذهاب إلى عيادة أحد الأطباء عندما سبقتها يد القدر، فقدمت سيارة أخرى اصطدمت بسيارة صديقتي وتركتها مثل العجين بين المقود وكرسي القيادة، وتلك الصورة لا تزال عالقة في مخيلتي، وحزني كبير على هذه الإنسانة التي أشعر أنها استعجلت الرحيل، وغابت وأخذت بعضا من الحنين.

الموجة الخامسة:

تقرير المصير وتلك الموجه من أصعب وأقسى الموجات، والتي سأسردها بالتفصيل خلال روايتي هذه، على أمل أن تكون فيها العبرة والفائدة لكل من يحلم بأن يختار بطريقة أفضل وأسلوب أنجع، فلا يفتح مجالا لأي إنسان أن يتحكم في مصيره، واختيار شريك حياته.هذه القصة هي ثمرة حياة عشتها وشربت من علقمها قبل حلوها.

أشواك كانت في طريقي ومشيت فوقها، تركت لدي الأثر القوي ومع ذلك جعلتني قوية.

الموجة السادسة:

في شهر نيسان من عام ألف وتسعمائة وثمانين، وفي تمام الساعة العاشرة ليلا، كنت جالسة على الكنبة أدرس وأمامي فنجان قهوة، فجأة دقّ جرس الباب، تركت مقعدي وارتديت الروب الأحمر، وذهبت لأفتح الباب. وإذا بالطارق صديق حميم لولدي لا تجمعه بوالدي قرابة بل صداقة أقوى من كل وشائج القرابة، ويقطن مدينة القدس[†] ترافقه زوجته وابنه وإحدى بناته وزوجها. استغربت من زيارتهم لنا في هذا الوقت، وكان الجو باردا، استقبلتهم بابتسامتي المعهودة، وقلت لهم تفضلوا أهلا وسهلا... لحظة حتى أوقظ أبي وأمي، كان أهلي نائمين، وأنا وحدي كنت استمتع بالدراسة ليلا، وأحب الدراسة أيضا في ساعات الفجر الأولى، حيث أجد راحة كبيرة، وأنا أدرس بالهدوء.

أيقظت أهلي من نومهم ويا ليتني لم أفعل، ولو كنت أعلم أن الغيب يخفي لي كارثة ما فتحت لهم الباب أصلا ولما

استقبلتهم.

بعد جلستهم مع والدي، قال صديق والدي الحميم لأبي: أريد ابنتك أحلام زوجة لابني، وإذا رفضت فسأفهم أن صداقتنا زائفة، وطلبي هذا موضع اختبار لمتانة صداقتنا أو عدمها.

وكان موقف والدي حينها لا يحسد عليه، وكانت تربطني بوالدي – رحمه الله– معزة كبيرة جدا، فلم استطع مشاهدة والدي وهو في هذا الموقف، وخرج صديقه الحميم من عندنا على أمل أن يأتي في الصباح الباكر، ويجد الرد الايجابي، طبعاً لأن وشائج علاقتهما ببعضهما تفوق وشائج أية قربى وكلامه لازم يمشي.

في هذه الليلة لم أستطع النوم، فالكثير من الخطاب طرقوا الباب وتم رفضهم جميعا بسهولة، لكن ابن صديق والدي هذا ومع ما بينهما من التحام الأخوة والصداقة وضع والدي في هذه الدائرة التي لا يمكن رفض طلبه، فالرفض صعب.

سألني والدي عن رأيي، فقلت له: أريد أن أكمل تعليمي، لا أريد الزواج.

وفي اليوم التالي جاء صديق والدي، وكان صاحب شخصية

قوية، فقال لأبي:
إذا لم تعطينا ابنتك فلن يكون ما بيننا صداقة ولن أعرفك.
وعندها تأثر أبي كثيرا، وقال لأمي: خلص لازم نوافق.
وتمت الخطوبة. حيث قال صديق والدي الحميم لأهلي:
أحلام ورده ستكون عندنا كما هي عندكم في الحفظ والصون، وسنعاملها أفضل معاملة، هي مش غريبة هي عند أهلها.

الموجة السابعة:

تمت الخطوبة على شرط أن ينتظر الخطيب حتى أنهي دراستي الثانوية، وذلك بعد عامين من بداية الخطوبة، كنت أتمنى لو تم الرفض، ولكن يا للأسف وافقوا على الشرط! وخطيبي هذا كان يحبني كثيرا.

سافر الخطيب بعد إتمام مراسم الخطوبة للعمل في إحدى دول الخليج، وكنت حينها أتابع دراستي في عمان، كانت أيام صعبة تعصف بمشاعري، فشعرت خلالها بالمعاناة حقا.

فأصبحت إنسانة مخطوبة لإنسان لا يوجد بيننا أي توافق سوى صداقة متينة بين الأبوين.

الموجة الثامنة:

فوجئت بعودة خطيبي إلى عمان أيام الامتحانات، لا أدري هل كانت عودته مقصودة ليشغلني عن دراستي، وهل كان يغار من نجاحي في الدراسة؟ علما بأنه كان يقول كما كان يقول أهله: الشهادات للحيطان.

الموجة التاسعة:

وهذه المرحلة هي المرحلة الانتقالية، فأيام الامتحانات الثانوية بدأت، ويرافقها الاستعداد لدخولي القفص الذهبي، وأنا أقول لنفسي من هنا تبدأ معالم السجن المؤبد تتضح، فليس الانتقال من العيش بحرية إلى العيش بقيود من حديد بالأمر السهل. من بيئة كنت أعامل بها أرق معاملة في عمان إلى بيئة سأتعامل فيها بأقسى معاملة في مدينة القدس.

الموجة العاشرة:

أهلي يقيمون في جبل المريخ في عمان، وأهل زوجي يسكنون القدس والسؤال الذي كان يقضّ مضاجعي: أين سيتم الزفاف؟ فكان الاختيار المناسب لأهل زوجي طبعا، بأن يتم في القدس فهو مناسب لأكثر أخوات زوجي.
والدي كان في منتهى الطيبة، وتمت إجراءات الزفاف استعدادا للدخول في قفص من حديد.

الموجة الحادية عشرة:

وصلت إلى القدس التاريخية، فهي بالنسبة لي مدينة تاريخية دينية، وهي الهدية الوحيدة التي نلتها من هذا الارتباط، بل هي الإغراء الوحيد الذي أسعدني في هذا الكابوس.
وبالقرب من المسجد الأقصى المبارك ،بالقرب من زهرة المدائن ،مسرى الرسول الكريم ،أرض المحشر والمنشر ،والصلاة فيه بألف صلاة في غيره من المساجد الإسلامية – القدس حلم الكثيرون من أبنائها اللاجئون والنازحون عنها .العودة إلى أحضانها .
كانت الموجة الأرق والأجمل من بين الأمواج التي واجهتها ،النظر إلى قبة الصخرة الذهبية عندما كانت ترهقني الحياة كانت بمثابة المُسَكِن لأوجاعي .
أوجاعي لم تكن خارجية ،كانت داخلية .
نفسي وروحي لم تجدا السلام في مدينة السلام !!!
عشت منزوعة الشخصية رغماً عني .فقط لأستطيع التأقلم مع البيئة التي وضعت بها .وآآآآآه من هذا الوضع .

لا أتمنى الوقوع في هذا الوضع حتى لمن تكرهني !!
فأنا إنسانة غريبة حسب وجهة نظر أخوات زوجي، ولا يحق لي التصرف على راحتي، فأنا ضيفة في عرفهم. لقد كنت أتوقع معاملة طيبة كما اعتدت في بيت أهلي ومع الجيران في عمان، ولكن يا للأسف المعاملة كانت عبارة عن غيرة قاتلة، ومراقبة مذلة لكل تصرف أقوم به، كنت أشبه بالنبتة التي يوضع عليها المجهر لمراقبتها جيدا، لم أكن مراقبة من شخص واحد فقط، بل من أسرة كاملة.
ومن العبارات التي كانت تقتلني عبارة (أهل عمان ...زبالة).
مع أن أرقى الناس وبصراحة أهل عمان .

الموجة الثانية عشرة:

كانت أسرة والد زوجي مكونه من ثلاثة شباب، وست صبايا: اثنتان متزوجات، والباقي صبايا في البيت لم يتزوجن بعد.
بدأت التحضيرات لحفل الزفاف، ولم أكن أنا الوحيدة بل شملت التحضيرات البنات اللاتي لم يتزوجن بعد وهن أخوة زوجي، وكانت حماتي تشتري لبناتها من الملابس وتجهيزات العرس قبل أن تشتري لي أنا العروس، مع أنني كنت وحيدة في هذه البلدة، ولا أعرف فيها شيئا.
كنت أمشي معها في السوق وأعاملها مثل معاملتي لأمي، مع أنها كانت لا تبادلني نفس الشعور.
كنت طيبة جدا. والآن بعدما مرت بي هذه الأعوام أقول عن نفسي بأنني كنت حمقاء، فلو كنت إنسانة قوية وجريئة، لكنت حينها قد تركت بيت الزوجية ورجعت إلى عمان، ولرفضت إتمام هذا الزواج البائس، الذي بدأت معالمه تتضح، فالمكتوب يقرأ من عنوانه، فأنا كنت حينها داخل

معركة أمام سبع نساء من أقوى النساء: حماتي وبناتها الست، وأنا وحيدة وغريبة ديار، والغربة الحقيقية أن تعيش مع أناس يدعون أنك قريب منهم ومشاعرهم نحوك جوفاء حاقدة، صدقوني بأنها تلك أقسى أنواع الغربة.

فأحيانا يعيش الفرد مع أشخاص غرباء، ولكنه يشعر نحوهم بالحب والحنان، وتربطهم به مشاعر الألفة والمحبة، يشعرونه بأنه منهم، فيهتمون به ويهتم بهم، يسعد بسعادتهم، ويسعدهم سعادته، تلك الحياة التي يجب أن تكون بين الأخوة والأحبة تلك الحياة التي كنت أقرأ عنها بالروايات .أتعلمون أن من أهم أسباب سوء التفاهم بين الأزواج الشابة في بداية حياتهم الزوجية هو (عدم الاستقلالية) لو أن بداية حياتي الزوجية كانت مع زوجي في بيت مستقل ولو مجرد غرفة واحدة ربما لم تضيع من عمري أجمل أيامه ولكن كان الخلل لي في المرصاد مرغمة أنا على العيش في ظل هذه العائلة .وأقول عائلة مع افتقادها لمعنى العائلة !!!

الموجة الثالثة عشرة:

يوم زفافي ويا للأسف صادف وقوع مذبحة صبرا وشاتيلا، وكان العالم بأسره متأثرا بهذه المذبحة، غير أن عائلة زوجي لم تكن من العائلات التي تتابع الأحداث والأخبار، ولم يكن لديهم انتماء قوي، علما بأنني كنت من الأشخاص الذين يحملون أقوى المشاعر للآخرين، وأقول والله العظيم، لو كنت على علم بما جرى للفلسطينيين في صبرا وشاتيلا ما وافقت على الزفاف في أيام هذه المذبحة المريعة، ولكنني كنت مغيَّبة عن الأحداث، أعيش في كوكب آخر بعيدا كل البعد عن الإنسانية. كوكب لا يُفكر إلا بأنانية وتمركز حول الذات .

أحياناً كثيرة كنت أحاول أن أجد تفسيراً يريحني من تساؤلاتي

لماذا حدث معي ماحدث ولم يحدث مع غيري ؟؟؟

ربما الحياة وضعتني تحت المجهر لأشعر بغيري من النساء

المعنفات واللواتي لا يمتلكن من القوة ما أمتلك .الحياة تحت حكم أشخاص رغما عنك بحاجة إلى قوة أكثر من الهروب .

كنت أحياناً كثيرة أجد الصبر عندما أقارن نفسي مع المعتقلين بالزنازين .

أقول وضعي أرحم من وضعهم .وأدعوا الله أن يفرج كربي وكربهم .

الموجة الرابعة عشرة:

أقامت العائلة الزفاف في البيت الذي سأقيم فيه مستقبلا، وقد ألغينا مراسيم الاحتفال بسبب أحداث صبرا وشاتيلا، حضر حفل الزفاف الأهل المقربون وأهلي ممن حضر منهم من عمان، لم يحضر الجميع، غير أن الغالبة العظمى منهم وفد إلى القدس بعد الزفاف للتهنئة.

تمت حفلة الزفاف في البيت، وكان الجميع ممن حضر مندهشا من جمال هذه العروس.

الموجة الخامسة عشرة:

أحببت أن اقضي ليلة زفافي الأولى في فندق في تل الربيع وكان اقتراح حماتي أن أذهب إلى فندق قريب من بيتنا في القدس، لكنني رفضت أن أكون في أول ليلة زفاف لي قريبة من بيت العائلة، وبعد جهد جهيد تم لي ما أردت وذهبنا، إلى تل الربيع، كنت في الفندق سعيدة، لأنني توقعت أن تضحك لي الأيام ... ربما، ولكن هيهات.

الموجة السادسة عشرة:

وبدأت المعاناة بعد العودة من تل الربيع إلى بيت العائلة، ففي أول يوم بدأت رحلة العذاب مع هذه العائلة.
لا استطيع القول بأنها عائلتي؛ لأن العائلة هي التي تحضن الإنسان وتقدم له الحب والعطف والحنان، وأنا كنت أفتقد لهذه المشاعر. بدأت الأقنعة تسقط عن جميع من حولي، وأسلوب المعاملة أصبح أشد قسوة وشراسة.

عندما تزوجت كنت أعتقد أني زوجة لرجل واحد، ومع وجودي مع العائلة اكتشفت أنني زوجة لأسرة كاملة مكونه من ثمانية أفراد، ومطلوب مني إرضاء جميع الأذواق والأمزجة، وويل لي إذا ما تذمرت، فكل طاقاتي وقدراتي وطموحي وضعت في سجن من فولاذ، والمفتاح كان في يد زوج ضعيف لا يقوى على المواجهة، شخصيته ضعيفة إلى حد كبير.

الموجة السابعة عشرة:

أقمت عند أهل زوجي، وفي أحد الأيام رجع زوجي فرحا، استغربت ذلك، وعن طريق والدته علمت أنه قد حصل على تأشيرة للسفر خارج البلاد.

وعندما حان وقت السفر تركني عند أهله على نية أن يبعث لي تأشيرة للحاق به، فبدأت رحلة العذاب تشتد، بقيت عند أهل زوجي وكنت كالمجاهدة، والغريب في الأمر أنني كنت أكابر، ومن كان يسألني كيف أنتِ:

دائما أقول الحمد لله.

فلم اشتكِ لأحد، كان الجرح عميقا جدا في داخل أقبية قلبي الممزق، ومن المفارقات العجيبة، أنني كنت أنا نفسي الفتاة التي كانت ترقص لها الحياة وتغني لقوتها وحيويتها، فأصبحت اليوم أسيرة في بيت لا يعرف الرحمة، أحيانا كنت أتمنى لو أني أسيرة بالسجن، فالسجن أرحم، وقد يشاطرك من حولك الاحترام والمحبة، أما عندما أكون مظلومة ولا يعرف أي إنسان بحالي، فهذا من أشد المواقف المؤلمة حقا،

لقد كنت كالطائر الجميل الموجود داخل قفص، والقفص في حرّ الشمس ووهجها.

الموجة الثامنة عشرة:

جاء الفرج، أو ما تأملته، والأمل بالمجهول نوع من التعلق بقشه. جاءت حماتي وأخبرتني أن زوجي بعث لي تأشيرة للحاق به؛ فرحت جدا، وقلت في نفسي: الحمد لله أخيرا.

رتبت ملابسي وأغراضي الضرورية ووضعتها في حقيبة زرقاء جميلة جدا، كنت سعيدة؛ لأنني سأرحل من هذا البيت المشئوم، الذي لم أجد فيه طعم الراحة.

قدم زوجي إلى القدس ، كانت رغبة زوجي أن نسافر عن طريق الجو، اعترضت، وقلت له:

لا، يا حبيبي، يا ريت نسافر عن طريق البر، لنشعر معا بالمتعة أكثر.

كنت مشتاقة جدا للحظات الحميمية بين الزوج وزوجته، اللحظات التي لم أعشها وأنا عند أهل زوجي، عانقني وابتسم، وكانت رحلتنا رائعة جدا، وأذكر على المعابر كيف كان الحرس يعتقدون أنني من سوريا، فكنت بيضاء وثغري مبتسم مع كل ما بداخلي من هموم وأوجاع.

الموجة التاسعة عشرة:

وصلنا إلى بيت أخت زوجي، وهناك دهشت لمستوى المعيشة البائس التي يعيشونها، هي وأبناؤها الثلاثة وزوجها بالإمارات العربية، ومستوى المعيشة عندهم في قمة البؤس، كنت أقول لها: لأول مرة أشاهد قصة البؤساء لفيكتور هيجو على الطبيعة، فكانت تبتسم، وتقول لي: الحمد لله إللي بعث من يقف إلى جانبي.

والحقيقة في أني لو كنت مقيمة دائمة وبشكل قانوني لكنت عملت في إحدى المدارس، ولكن يا للأسف فأنا قادمة بتأشيرة وزيارة مؤقتة، فلقد اكتشفت أن حياة زوجي لا ترتكز على أي أساس سليم بل على أساس هش.

عشت فترة ثلاثة أشهر الأولى من مقدمي للإمارات مع ابنة حماي، وجاء موسم الحج، حماتي بعثت إلى زوجي أنها تريد تأدية مناسك الحج، والمبلغ الذي وفَّره زوجي عليه أن يمنحه لوالدته، كنا نعيش على مستوى خط الفقر والقلة، فقام زوجي بإجراء معاملة الحج لوالدته، وذهب

لاستقبالها في جده وتركني عند أخته. وبدأت مشاعر الكراهية والغيرة تملأ المحيط الذي أعيش به، مع ابنة حماتي بالذات، فقد كان الجميع يحبون كلامي معهم إلا هي، جاءت إلى غرفتي، وقالت لي:

لماذا لا تلحقي بزوجك؟ أريد أن أبقى وحدي مع زوجي؛ لنحتفل بعيد زواجنا.

وعندما جاء زوجي من جدة؛ لكي يأخذ بعض أوراقه الضرورية طلبت منه أن يصطحبني معه، ولم أُخبره بما فعلت أخته وقالته لي، فليس من طبعي النميمة والغيبة، في البداية لم يرحب بالفكرة، لأنه يعلم أن والدته لا تطيقني، لكنه مع إصراري الشديد وافق، وذهبت برفقته إلى جدة، وبعد عناء السفر وعند وصولنا إلى جده أول كلمة استقبلتني بها حماتي: شو جابك؟

قلت في نفسي: يا رب، شو أعمل، رضيت بالهمّ والهمّ مش راضي فيّ. المشكلة أنني أخاف على والدي إن تركت زوجي ورجعت إلى الأردن أن يتضايق. وبقيت أسبح ضد التيار دونما مجداف.

الموجة العشرون:

بدأنا الإعداد لمناسك الحج، حماتي تعاملني أسوأ معاملة في الكون، هي تريد البقاء مع ابنها، فلا أدري، وأخذت أسائل نفسي: فإذا كانت متعلقة إلى هذه الدرجة القوية بابنها، فلماذا ورطتني بالزواج منه؟ لماذا؟

سيكون وضعي أفضل مليون مرة فيما لو كنت متزوجة من شخص غير ابنها، الله يجازي العادات والتقاليد التي تجعل الأنثى أحيانا كثيرة سلعة تباع وتشترى، ومن الصور المؤلمة والمحرجة حقا لي، أنه عندما انتهت مشاعر الحجّ وجاء وقت طواف الوداع، أن تركني زوجي لدى مجموعه من العائلات المصرية، مكونة من ثلاث عائلات، لكل عائلة غرفة، وكان الأزواج في شوق إلى زوجاتهم بعد أداء مناسك الحج، جلست في الممرّ بين الغرف وحيدة وحزينة، وسمعت أحد التعليقات من أحد المصريين، وهو يقول لزوجته:

لو أن أحلام زوجتي لكنت أكلتها، من يترك امرأة مثل القشطة وحيدة، ويلحق بأمه؟.

الموجة الواحدة والعشرين:

رجعت إلى بيت بنت حماي بعد الانتهاء من شعائر الحج، وحصلت مأساة كبرى كانت في انتظارنا.

ابن أخت زوجي البالغ من العمر ثلاث سنوات تعرض لحادث مؤسف، أحد العمال أراد أن يأخذه معه؛ ليشتري له الحلوى، ولم يتقيد العامل بقواعد المرور، فلم يربط الطفل بحزام الآمان، وكانت النافذة بجوار الطفل مفتوحة، وكان العامل يقود مركبته بسرعة جنونية، ومع السرعة طار الطفل من النافذة، وارتطم رأسه بصخرة على الطريق، ومن شاهد رأس الطفل قال بأنه كالسائل من شدة الصدمة.

وابنة حماي لم تستطع البقاء في غربتها مع زوجها وقتا أطول بعد هذه الحادثة، وعادت أدراجها إلى الكرك، وبقيت أنا وحدي مع زوجي، وزوجها، وأصدقائهم.

كنت مرتاحة لهذا الوضع، فلا أحد يضايقني، إلى أن جاء يوم، وقال لي زوجي:

أمي تريد أن أرجع إلى الوطن، فهي لا تستطيع العيش

بدوني.
آه يا قلبي، ستعود إلى السجن الذي كنت فيه بالأمس، والشيء الوحيد الذي كان يشدني للعودة، هو عزائي لعشق تراب الوطن، عدت إلى الوطن مغموما كالشاة التي تنتظر ذبحها، ولم يكن العود أحمد، وكانت الأمواج العاتية بانتظاري تعصف بي من كل الجهات.

الموجة الثانية والعشرون:

مطلوب مني أن أكون بلا شخصية، حاولوا أن يمحوا أية ملامح لشخصيتي التي نشأت عليها، يريدون أن يخفوا من نفسي كل أثر من حياة الطالبة المجتهدة المتفائلة، ولولا رحمة ربي –عز وجل– وعنايته لفقدت عقلي، أو ربما لكنت اليوم في أحد مستشفيات الأمراض العقلية.

فمهما حاولت أن أصوِّر أو أصف معاناتي في فترة وجودي في بيت والد زوجي– الذي يفترض به أن يكون بمثابة أب لي– فلا استطيع وأعجز.

في كل يوم كنت أتعرض لصورة من صور التعذيب النفسي، والشيء الذي كان يصبرني كلمات أمي لي: المرأة الجيدة يا بنيتي، هي التي تصبر على زوجها.

يا الله شو كنت ساذجة وغبية! فلماذا لم أهرب وأترك أهلي وأهل زوجي، وأعيش وحدي؟ فأنا إنسانة، ولا يجب أن تكون شخصيتي مهزومة إلى هذه الدرجة، فكنت أنا نفسي بين نارين تلتهمان كياني: نار داخلية تتمثل في أنني

إنسانة ثائرة، ونار خارجية تتمثل في أنني إنسانة ضعيفة لا تستطيع المقاومة، لقد تعبت، والله.

الموجة الثالثة والعشرون:

عندما عدت مع زوجي من الخارج إلى القدس ، كان أهله قد أفرغوا لنا غرفتين ومطبخا وحماما، هو بيت فقط بالاسم وليس بالمضمون، لقد كنت زوجة بالاسم فقط، حماتي وبناتها هم الأصل، وأنا صفر على الشمال غير حافظ لمنزلته، كان زوجي يزورني فقط للنوم، وفي الصباح يكون عند والدته وأخواته، في هذه الفترة القاسية جدا أنجبت ابنتي البكر، كانت جميلة جدا، ولكنني لم أشعر بالسعادة التي تشعر بها أية أنثى عندما ترزق بولد أو بنت، حماتي أمامي وبناتها، وزوجي غائب أو مغيَّب. فلقد اختاروا الاسم لابنتي، فلم يتركوا لي حرية الاختيار أو المشاورة، وفي أحد الأيام الماطرة جدا والسوداء، جاء زوجي وبرفقته سيارة من التي تنقل الركاب إلى عمان، فقال لي بالحرف الواحد: أمي لا تريدك وكذلك أخواتي، فهيّا إلى الرحيل لأهلك.

رجعت إلى عمان برفقة ابنتي الوحيدة، والدموع تملأ عينيّ،

لقد كنت مرضعة. حماتي وكذلك بناتها كنّ فرحات كثيرا، لان زوجي طردني من بيتي، ووصلتنا في عمان الأخبار بأن حماتي تبحث لابنها على عروس. أمي قالت:

نحن غير ملزمين بالإنفاق على ابنتك، وحماتك تبحث لولدها على عروس، فعلينا أن نرجع ابنتك إلى والدها في القدس .

وافقت رغما عني، وفي الصباح الباكر أيقظت ابنتي الطفلة الجميلة من نومها، وألبستها فستانا أحمر جميلا جدا، وخرجت برفقة أبي وأمي إلى الجسر ، لإرسال طفلتي الحبيبة إلى بيت جدها في القدس، كنت أبكي دما في هذه الفترة، فبيني وبين فلذة كبدي جسر من الآلام.

رجعت إلى بيت والدي والدموع تملأ عينيّ، فقد كنت مرضعة، وتألمت كثيرا لدى فراق طفلتي.

وعندما وصلت ابنتي إلى بيت جدها، قالت إحدى عمّاتها التي تكرهني، وهي تضحك عاليا: هذا ما نريده.

والقادمون من القدس كانوا ينقلون لي أخبار ابنتي، ويذكرون لي بأنها دائمة البكاء والنداء، وتصرخ وتنادي: أحلام أحلام أحلام.

ونتيجة لهذه الاستمرارية في البكاء، بكاء طفلتي اضطر

زوجي لطلب العفو والسماح مني وبكى كثيرا، وقال لي:
أنا تغيرت حرامَ عَ لشان ابنتنا عودي إلينا. وكنت حينها أتعلم في إحدى الكليات بالأردن سكرتاريا، فاضطررت لتركت دراستي من أجل فلذة كبدي، وعدت للعذاب أصارعه ويصارعني.

الموجة الرابعة والعشرون:

حملت بابني الثاني، بعد أخته بثلاثة أعوام من المعاناة، جاءني المخاض الساعة الثانية عشرة ظهرا، ذهبت للمستشفى، ولحسن حظي المستشفى قريب، وضعت طفلي ولم يحضر زوجي، ولو تعرفون لماذا لم يحضر لاستغربتم، كانت حينها تقام لعبة كرة قدم وهو يتابعها، واتصل الأهل به، فلم يهتم للأمر، واستمر في الملعب إلى نهاية المباراة. كانت تصرفات زوجي تعجب أمه، وقالت لي:

لماذا تريدين أن تخنقي ابني؟

وتساءلت في نفسي: إذا طلبت منه أن يكون إلى جواري أثناء الولادة، فهل أخنقه؟

يا ربي، شو تعبت مع حماتي، وبنات حماتي، وزوجي، أريد أن أرتاح، لكنني لا أعرف كيف؟

الموجة الخامسة والعشرون:

زوجي الغالي يريد أن يشتري سيارة، ولا يملك المبلغ اللازم لشرائها. في تمام الساعة السابعة صباحا طرق باب بيتي عمي ومعه زوجته، وقالا لي:

أنت لازم تعطينا الذهب عَ لشان زوجك يشتري سيارة!

وقالا لي أيضا: ذهب المرأة مش إلها، هو لزوجها.

بعت الذهب واشترى زوجي السيارة، ويا ريت أنه كان يأخذني أنا وأطفالي معه بالسيارة، كنت استمع فقط لصوت المحرك، وهو ذاهب أو عائد من مشاويره مع والدته وأخواته.

وما يواسيني أن كانت تسكن في حارتنا امرأة طيبة جدا، وكانت تحبني كثيرا، كنت أشرب بمعيتها القهوة وتسري عن نفسي بحديثها الجميل، كانت لي أكثر من أخت.

وكنت اردد المثل القائل (لولا جارتي لفقعت مرارتي).باقي العائلة كانوا يستمتعون بمعاناتي (يلعبوا دور المتفرجين !!!)

الموجة السادسة والعشرون:

سافر زوجي إلى الإمارات مرة أخرى، وكنت حاملا بابنتي الثالثة في الشهر الأول، كنت وحيدة ببيتي، والغريب في الموضوع أن حماتي أهملتني في هذه الفترة، فلا أحد يسأل عني، حتى زوجي في الغربة نسيني هو الآخر، عام كامل لم يتصل بي، فلم يبعث لي أي مبلغ من المال، وكنت أعيش من المبالغ التي تأتيني من أهلي من عمان، أطفال ثلاثة، وأمهم في غربة ووحدة قاتلة، يعانون ما يعانون، وفي يوم كنت في غاية الضيق المادي، وأنا نازلة على الدرج شاهدني حماي فاستوقفني، وسألني:

إلى أين أنت ذاهبة؟

فأخبرته بأنني ذاهبة إلى السوق لبيع دبلة الزفاف الخاصة بي. فأعطاني مبلغاً من المال كان أهلي قد بعثوه لي في وقت سابق، ولم أكن أعلم به، فأخفاه عني ولم يعطني إياه إلا عندما شعر بأنني متضايقة. أسلوب في غاية الظلم.

وخلال فترة غياب زوجي لم يسألني عن احتياجاتي، أو ماذا

ينقصني أنا وأطفالي، والآن عندما اقتربت عودة زوجي أخذوا يسألون عني ...شيء لا يتصوره العقل الطبيعي.

الموجه السابعة والعشرون :

ثلاجة فارغة ... بيت بارد لعدم توفر أية وسيلة للتدفئة به، حبل غسيل بالممر وحفاظات الأطفال المنصوري على الحبل لعدم توفر النقود لشراء حفاظات ورقية.

طرقت على الباب، فإذا بحماتي أمامي... قالت:

أحلام زوجك اليوم راجع من السفر، فخدي هدول المصاري بعثهم إلك قبل شهر...دهشت.

وتساءلت في نفسي: لماذا لم تظهر زوجة عمي الفلوس التي أرسلها زوجي قبل شهر كمصروف للبيت إلا هذه اللحظة، ولم تسلمني إياها إلا اليوم.

أعطتني النقود، وقالت: روحي اشتري شو ناقصك من السوق.

تركت أطفالي عند حماتي وذهبت إلى السوق لشراء ما ينقصني من متطلبات البيت، وكان بيتي خاليا من كل ما يلزمه، فاشتريت المواد الضرورية الملحَّة.

انظروا إلى هذا الأسلوب في التعامل. فطوال فترة غياب زوجي لم أجد أي نوع من الاهتمام، والآن ظهر الاهتمام!

الموجة الثامنة والعشرون:

عاد زوجي بعد عام من الغربة ... ورجعت حليمة لعادتها القديمة، ففي اليوم الأول من عودته بدأت أحس وأشاهد مظاهر الظلم والغيرة تظهر أمامي.

الهدايا لم أشاهدها إلا صدفة، من خلال ملابس بنات حماي وحماتي الجديدة. حياة بائسة تعصف بكياني، وفي أحد الأيام بينما كنت أنظف الزجاج، فإذا بيدي تخرج منه، فانقطع أحد شرايينها وبلّل الدّم المكان. فتركت أطفالي الصغار عند حماتي التي لم تكترث بما حصل لي، وزوجي كان برفقة أصدقائه، وعندما شاهدت حماتي الدّم المتدفق من يدي أحضرت كحله ووضعتها على يدي، وقالت لي اذهبي للمستشفى، ولحسن حظي وجدت أحد الأصدقاء على قارعة الطريق، فنقلني للمستشفى، وطوال الطريق كنت أسمعه وهو يدعو على حماتي الظالمة بالكثير من الأدعية، ويقول لي:

الله لا يسامح أهلك، كيف رموكِ عند هيك عالم.

وصلنا المستشفى، وقام الطبيب المناوب بخياطة يدي، فلم أصرخ وهو يخيط جرحها المثخن، لأنني كنت داخل نفسي أبكي حظي الداثر.

الموجة التاسعة والعشرون:

هذه الموجه حدثت أيام حرب الخليج، اضطرتني الظروف للعيش مع حماتي فترة الحرب، وكانت من الأوقات القاسية جدا، فكنت أعاني من ضغط نفسي وضغط سياسي، وكان أطفالي يعانون مثلي من ظلم الأهل، فابني أصابته حاله من التبول اللاإرادي، جرّاء الطريقة القاسية في التعامل معه من قِبَل جده وجدته وعماته.

الموجة الثلاثون :

الأحداث التي مرت في حياتي جعلت مني إنسانة صلبة وقوية، أضع بين أيديكم رؤوس أقلام لما مر بحياتي من ظلم ذوي القربى، ومن خلال تجربتي الخاصة في الحياة لا أشجع مطلقا على الزواج دون معرفة مسبقّة وتفاهم، مع أنني أجد بعض التغيير في العلاقة التي تربط بين الحماة والكنه هذه الأيام، ومن الأفضل ألا نضغط على أبنائنا وبناتنا وألّا نتدخل في اختيارهم لشريك حياة كل منهم، وعلينا أن نترك لهم حرية الاختيار، فحياتهم ملك لهم، وهم الذين سيعيشونها. نحن سنرحل، وماذا نترك لهم إن نحن لم نجعلهم أحرارا في تقرير المصير.

الموجة الحادية والثلاثون:

الحب الضائع

استيقظت في احد الأيام الربيعية، فتحت نافذة غرفتي المطلة على شجرة اللوز الأخضر في يوم ربيع في منتهى الروعة. كنت لا أحب اللوز، ولكنني كنت أحب الكرز. كانت شجرة الكرز تدهشني وتجذبني إليها؛ لجمال رائحتها ومنظرها الحافل بالزهر وطعمها اللذيذ الذي يسيل له اللعاب.

خلعت ملابس النوم وارتديت ملابس المدرسة، كان الزى الموحد لدينا في المدرسة، مريولا أخضر جميلا، وكان قصيرا، كنت أحب أن ارتدي المريول دون بنطال تحته. فقط المريول مع حذاء رياضي وجربان أبيض يعلو الراتيل الأبيض الجميل. كنت أنيقة جدا، وكانت أناقتي لافته للصديقات.

ذهبت إلى المطبخ وأعددت فنجان قهوة، كنت أحب رائحة القهوة كثيرا خصوصا عندما كانت تغلي على النار، وأرش

على وجهها الهيل، كانت رائحة الهيل تنعش قلبي وروحي. وضعت فنجان القهوة وصببت القهوة فيه بالفنجان واحتسيته. كم كنت اشعر بالسعادة في تلك اللحظات. كنت بالمرحلة الثانوية. نزلت الدرج على عجل وكان الدرج المؤدي من بيتنا إلى الشارع العام طويلا جدا، كأغلب الأدراج في جبال عمان، وكان ينتظر باستمرار مروري شاب جميل جدا، كانت لديه سيارة مرسيدس خضراء، كنت أسير بالشارع وهو يلاحقني بسيارته وصوت أم كلثوم بشدو أغنية (سيرة الحب). وكان يسير خلفي ببطء، كانت نظراته لي تشعرني بالسعادة، ولكن لم يخفق قلبي لمشاهدته، مع انه كان ينظر لي بكل الإعجاب والمحبة. وقال لي مرة : تعال يا حلوة.

لم أقل له: تعال بل أدرت ظهري له. تابع ملاحقتي مدة عام. وأنا لا أعطيه أية إشارة تجعله يتقدم لخطبتي.

كثير من المرات كنت اختصر المسافة وأسير من بين البيوت حتى لا يلحقني هذا الشاب الوسيم. ولو أن غيري حظيت بشخصية مثل هذا الشاب لكانت قد طارت من الفرح. كان يعمل مهندسا في التلفزيون.

كنت أنزل من جبل النظيف إلى حي المصدار، حيث كانت

مدرستي هناك في نهاية حي الأرمن، كانت مدرستي محاطة بالمسيحيين من كل الجهات، وفوق المدرسة حي الأرمن، وأمام المدرسة راهبات الوردية، والطريق المؤدي من بيتي إلى المدرسة كانت تقطن فيه الأسر المسيحية.

وأنا نازلة من بيتي ومن جبل النظيف إلى حي المصدار، كان هناك شاب اسمه إلياس أشقر وعيناه زرقاوان. كنت أحب إلياس عندما كان ينظر إليّ.

إلياس كان طالبا جامعيا، كان يجلس على عتبه بيتهم كل يوم في نفس الساعة، ويقول لي: صباح الخير.

كانت كلمة صباح الخير أحلام من بين شفتي إلياس تحملني فوق السحاب، وتجعلني أشعر بالسعادة الشديدة. كان إلياس يحب أغاني فيروز وخصوصا أغنية (حبيتك لنسيت النوم) كان يعلي صوت المذياع في بيتهم عندما أكون قريبة من البيت الخاص بهم.

صديقتي (دنيا) قالت لي بتعرفي يا (أحلام) قال إلياس لأخي أنه يعبدك، شعرت حينها بأنني ملكة في تلك اللحظات التي علمت أنني محبوبة من إلياس، هذا الشاب الوسيم الذي تتمنى أن تحظي بحب شخص مثله أيّ فتاه في الدنيا. وحتى لو كان اختلاف الدين عائقا.

جميل جدا الشعور بأنك شخص مرغوب وخصوصا في هذه المرحلة من العمر.
يقولون إنها مرحلة المراهقة. وأنا أقول أنها مرحلة السعادة والجمال وحب الحياة والانطلاق. طريق مدرستي كانت مليئة بأشكال وألوان وأجناس مختلفة من القوميات.
قهوة المصدار كانت في صباح كل يوم مليئة بالرواد، تعجّ بسائقي الشاحنات والمركبات القادمة أو المتجهة إلى السعودية أو إلى العراق أو إلى العقبة ومصر، ورائحة القهوة بهيلها تنعش الأنفاس، وعندما أصل مدرستي أتوجه لأم ماهر لأطرح عليها السلام، قهوة المصدار كانت في صباح كل يوم مليئة بالرواد من سائقي الشاحنات والسيارات التي تتجه إلى السعودية والعراق ومصر. وكانت رائحة القهوة تعلو الأجواء وتملأها برائحة أعشقها.
عندما أصل إلى مدرستي كنت أقول لأم ماهر صباح الخير. كانت تعد ساندويتشات الفلافل لبنات المدرسة. أنا كنت أصل المدرسة وحدي، ولكن عندما كنت أعود للبيت كنت أكون مع شلة من الصبايا الصديقات.
في كل صباح كانت مديرة المدرسة تطل على الشارع من خلل شرفة المدرسة المطلة على الشارع. وكنت اشعر بأنني

تحت المجهر. أنظر إليها وابتسم وهي ترد لي النظرة بنفس الابتسامة.

قوة شخصيتي كان مصدرها أنني إنسانة وطالبة مجتهدة ونشيطة. كانت معلمة التدبير المنزلي تعتمد علي في إعداد الوصفات.

من المواقف التي لا أزال اذكرها عندما كنت بالمدرسة، حادثة حدثت لإحدى زميلاتي في المدرسة واسمها أم كلثوم، كانت جميلة جدا، وكانت تقول اسمي أم كلثوم، لان خدودي جميلة ولافتة للنظر، أم كلثوم كانت ذات شعر طويل جدا جدا. كانت تترك شعرها المنسدل حول كتفيها مثل الشلال، وكانت تفرح وتتهادى به في مشيتها. ونحن نستمع للأغاني: أغنية عصام رجي «هزي يا نواعم شعرك الحرير» وأغنية عبد الحليم حافظ «قارئة الفنجان» . ونحن في الصف جاءت مديرة المدرسة فجأة وفتحت حقيبة الطالبة أم كلثوم، كنا في مرحلة الثانوية وأخرجت شريطا به حبوب صفراء اكتشفنا فيما بعد أنها حبوب منع الحمل، وثارت المديرة في وجه الطالبة التي أخذت تبكي بعد أن أخرجتها من غرفة الصف ماسكة بشعرها، وهذه الطالبة كانت صديقة لشاب وسيم، ويبدو أنه كان يعاشرها، ولم

نر الطالبة منذ تلك اللحظة إلى اليوم، ولا نعرف ما جرى لها، غير أنني عرفت فيما بعد أن قطار الزواج قد فاتها بعد أن خُدعت فتزوجت من رجل مسِّن مسافرة مع زوجها لدولة خليجية.

أتذكر في أيام دراستي الكثير من الحالات والأحداث المثيرة التي حصلت، كنت أحب الجميع والهدوء، ولا تروق لي الأحداث المؤلمة لزميلاتي أو لغيرهن في تلك المدرسة.

وأتذكر حادثة حصلت لأخ صديقتي هيام، ولها ثلاثة أخوة، أحدهم كان مطلوبا للخدمة العسكرية، فرفض الالتحاق بها، وقدم هذا الأخ للمدرسة ليشاهد أخته أو لعله يريد توديعها، فنظر إلى أخته في الصف نظرة تمعن ونظرته كان فيها الكثير من المعاني والدلالات، فيها معاني التهور والاندفاع والوداع والحب والحنان والغربة الأبدية، وقال لأخته: (سامحيني) وانطلق مغادرا أسوار المدرسة، وقبل نهاية الدوام المدرسي سمعنا جلبة وضوضاء مصدرها حي المهاجرين، ورأينا الناس يتجمهرون حول بيت صديقتي هيام، ذهبت صديقتي هيام إلى مديرة المدرسة وطلبت منها أن تتكلم مع والدتها وتستفسر عن الأمر، فردت أمها قائلة:

لقد أطلق أخوك النار على رأسه ومات، فأغمي على هيام فورا، وطلبت المديرة من المقصف كأس عصير ليمون، وأحضرت عطرا رشّته على وجهها، وبعد أن أفاقت سرنا معها إلى بيتها.

أحد الشباب الذين ذابوا بي عشقا الشاب خالد ويدعى ب "خالد اليتيم" حيث مات والده وهو طفل ويعيش الآن مع والدته وأخته صديقة لي تدعى مها، وهم أصلا قدموا من مدينة الفالوجة المحتلة المهجرة، أمه كانت تعمل في تطريز الثياب الفلسطينية وتعمل حاضنة لبعض معلمات الأطفال في منطقة سكناها، ولشدة حب خالد لي اكتشفت أنه كان يقوم بتسجيل حديثي أثناء زيارتي لأخته دون علما مني، وعندما كنت أخرج من عندهم كان يعيد الاستماع لما سجله من صوتي ويحن ويطرب ويستمتع به، وفي يوم من الأيام بينما كنا نلعب لعبة الجوارب والقنطرة فإذا بابن خال خالد، واسمه هاني يحضر لبيتهم، وكان قد أحضر كرة خضراء لونها، ففتح غطاءها وسرعان ما انفجرت لتودي بحياته، فإذا بها قنبلة من مخلفات حرب أيلول، كانت العمارة التي نسكن بها وما حولها أغلب سكانها من أصول فلسطينية، والكثير منهم صاحب مواهب، فأحدهم كان

رساما، يرسم فنه على لوحته برسومه الزيتية التي كنا دوما نستمتع بجمالها ودقة فنها وما ترمز إليه، ومن النسوة من هن فنانات في فن التطريز كأم خالد، ومنهن من يتقن فن العزف والغناء، وكانت جارتنا النابلسية تتفنن في صحن الحلويات الشهية، وكنا نستمتع برائحة وذوق الفلافل القريب منا.

الموجة الثانية والثلاثون:

في يوم من الأيام غادرت بيتي في القدس وقمت بزيارة أهلي في عمان، وأثناء ذلك قررت أن أجتمع بمعظم صديقات الصبا والتحدث عن حالنا وآمالنا، وما آلت إليه أمورنا، ورتبت معهن اللقاء ليكون عصر يوم جميل وتمتد فيه الإقامة حتى أواخر الليل، فحضرت الصديقات، وتحادثنا طويلا، فمنهن من كانت منسجمة مع واقعها تعيش رغد العيش، ومنهن من عضّه الدهر بنابه، وسوف أتطرق لبعض مما وصفت كل واحدة حالتها، منهن: سناء، وسعاد وسهام وسميرة وغيرهن، وقصَّت لنا كل واحدة منهن قصتها، فمنهن السعيدات، ومنهن الشقيات التي حياتهن كلها أسى وسقوط.

فصديقتنا سناء كانت قد تزوجت من قريب لها وسكنت معه مدينة الخليل، اكتشفت فيما بعد بأنه مقامر والقمار يسري في عروقه، إضافة إلى أنه كان مدمنا على الخمر، حاولت سناء في بداية الأمر أن تغير من مجرى حيات زوجها، وتكفّه عن

لعب القمار ومعاقرة الخمر، لكن جهودها ذهبت أدراج الرياح، فأصبحت تعيش واقعا مزريا مع زوج عابث لا يراعي حرمة بيت أو زوجة ولا يحس بها، زوج تخلّى عن كل مسؤولياته، وترك أطفالها الثلاثة وألقى بهم في صدر زوجته سناء التي كتب عليها الشقاء، سناء كانت جميلة وتقاسيم وجهها تبتسم، زوجها لا يعود للبيت إلا في ساعات الفجر وقد هدّه الخمر وأتعبته القمار، وسناء تنتظر وعواطفها قد أريقت لكن دون رجل يقدِّر، وكان قد تنبَّه بعض الرجال لواقع أحاسيسها لكنها كانت في أول الأمر عنيدة تصدهم وتردعهم، وطال الانتظار وأصبحت قوة الردع والرفض تضعف يوما بعد يوم، وفي منتصف إحدى الليالي طرق أخ زوجها عليها الباب، فتحت له على أمل أن يساعدها في ثني أخيه عن عاداته، فقال لها أريد الجلوس معك، أعجب بجمالها، وحركت مشاعره أنوثتها والعطور التي تتضوّع منها، وتقول:

وأخذ يسب على زوجي، أي أخيه وينفر من عاداته، ومن العلاقة التي تربطني به، وشيئا فشيئا أخذ يغازلني، ويعدني بالزواج منه إن أنا تركت زوجي، وعندما رأى علامات الضعف والانهيار بادية على محياي ضمني لصدره، وبعدها

حصل السقوط المتكرر والمبرمج، وتقول سناء:
استهويت الأمر في بادئه، وليتني ما استهويته، لكن الإنسان عندما ينهار يصعب عليه بعدها ضبط بوصلته، وها هو سلفي يحتل محل زوجي الضائع وأنا أقع في مستنقع الأوهام، وأخذ بعدها يعاملني كجارية يعمل بي ما يريده متى شاء، وتتعقد الأمور شيئا فشيئا وأحمل من سِلفي أخ زوجي طفلا، اعتقد زوجي أنه من صلبه ولحمه ودمه، وتزداد الضغوطات النفسية ويزداد وقعها على كاهلي، وللجمال ضريبة فقد كانت سناء جميلة، والمثل يقول: " بخت الجميلات مائل"، ويبتعد عشيقها شيئا فشيئا عن سناء بعد أن شبع من حاجته، لكن السقوط كهذا ليس له حدود، بل أصبحت سناء تتدرج في السقوط وتعاشر كل من طلب، وخاصة بعد أن هاجر زوج شقيقها الذي فتح لها باب الانهيار على مصراعيه، أصبحت في عداد المومسات، تبكي حالها كثيرا وصحوة الضمير تعصف بأوتار قلبها، لكن السقوط كان مريعا، يموت زوجها في حادث، ويتسع السقوط ويزداد الألم النفسي الذي لا كابح له، تبكي حالها ومآلها، أطفالها يسألونها عن سبب بكائها المستمر، وتقول لهم:

رأسي يؤلمني كثيرا، تريد الهروب من واقع قذر فتلجأ للمنومات، فيصبح حالها أسوأ، فهي كمن يهرب من لدغات الأفاعي وينام فوق العقارب، وها هي تشعر بعدم الثقة بالنفس وتدني مستوى الاعتداد بالذات، وتزداد في اكتسابها لوسائل تدمير الذات والإيذاء النفسي، ويحلو لها ضرب الآخرين أو الشجار الدائم مع غيرهم.

سوء المعاملة المستمر الذي تشعر به من محيطها يؤثر فيها جسمانيا واجتماعيا وأكاديميا وعاطفيا. وتظهر عليها علامات الاضطراب العاطفي، مثل مص الإبهام أو التبول اللاإرادي، وتشعر بالضياع والدونية. ولا يحمل السقوط في أحشائه سوى الألم والموت والمعاناة للأنفس البريئة... فأما ما نشاهده في حالات السقوط والضياع والانحراف فهو تلك الصور المؤلمة في نفوس من سقط في الرذيلة وشعوره بالدمار النفسي والأخلاقي والاجتماعي، ويصعب أن يكون الزمان كفيلا بتجاوزها ونسيانها، وأما ما لا نشاهده ولا يمحوه الزمن فهو الأثر النفسي الذي ستتركه هذه المعاناة بداخل كل من عاصرها، وعايش الرعب والقلق وفقده للقيم، فسيشعر بالضياع ويستظل بظله ليجد نفسه في العراء.

ويعتبر السلاح الأشد فتكا في حالات السقوط والوقوع في الرذيلة هو التدمير النفسي الذي يدمر التوازن النفسي، وهكذا السقوط دائما يصنعه الكبار ويقع ضحية لها الغلابا والطيبين، وهذا كله ما عبّرت عنه سناء وهي تروي فاجعتها، وكنا نشاركها البكاء.

وفي نهاية الأمر تولتها العناية الإلهية، والعناية الإلهية تكون قريبة جدا مع أصحاب القلوب البيضاء ومع من يتلظّي بحرّ وهج الدهر، لم تجد سناء لها معينا غير التوبة الصادقة والتمسك بحبال المولى، فتغشتها السكينة ولبست لباس التقوى وعادت لجادة الصواب.

وأما رهام فقد تزوجت وانتقلت مع زوجها لتسكن مدينة السلط، وانصب عملها على دور المعلمة النافعة، وأفكارها ترويها لنا قائلة:

الحمد لله الذي خلقنا فسوانا، وأكرمنا فهدانا وأسبغ علينا نعمه ألوانا، وأشهد أن لا إله إلا الله هادينا ومولانا ونصلي ونسلم على من شفاعته منانا، وإذا ما أردنا تدارك الأمر بالعلاج والإصلاح وهذا أوجب ما يكون علينا، فيجب أن نعد العدة له، ووالله يا أحبتي لكأنني بِعَبَاراتي تسبق عِباراتي لشعوري الأكيد بالتقصير ولا ريب، وحال أمتي

المتهالك، أبكي على تقصيرنا وقد وعدنا الله بالنصر، قال تعالى: {ولينصرن الله من ينصره} وإن من أهم مناطق الدفاع والهجوم في معركتنا هذه هي المُدرِّسة وحاملة راية الجهاد هي المعلمة .. فإذا وعت المعلمة دورها الحقيقي وقامت به حق القيام، وأعدت العدة لإنشاء جيل يحمل هم الإسلام، ورسخت في قلوبهن فطرة التوحيد وعقيدة الإيمان، استعدنا رشدنا وخسر العدو وخاب بإذن الله.

ومهنة المعلمة من أصعب المهمات، ولكنها من أشرفها وأعظمها دورا ونفعا، ونحن نرى ولله الحمد جهودا طيبة في الدعوة من بعض المعلمات، وما هذه الصحوة المباركة إلا وللمعلمات دور كبير فيها، ولكن مجال الدعوة في المدارس يستوعب ويتطلب أكبر من ذلك.

وأما سعاد فقصتها هي الأخرى كانت مؤلمة، فهي فتاة جامعية ممشوقة القوام، سامقة كما النخلة، تهواها النفوس، سمراء ذات ملامح هندية، تموج في مشيتها كموج البحر، كانت في منتهى الذكاء والعطاء والكياسة، أعجب بها زميلها الجامعي وأعجبت به، تزوجت منه بعد رحلة حب وردية، وافق الأهل حينها على الزواج منه، فهم يريدون الستر والستيرة لفلذة كبدهم أولا وقبل كل شيء، وما يهم

أهل العريس هو جمال العروس، فلم يهتم الطرفان كثيرا ببقية الصفات ما بين العروسين، فتزوجت سعاد من وائل، عاشا أول عامين في سعادة وهناء، لكن يد المنون لا بد لها أن تبطش، شعرت سعاد بألم شديد في الرحم، راجعت الطبيب مرارا وتكرارا، وبعد معاينات وعلاج أخبرها الطبيب بتدرج بأنها تعاني من سرطان الرحم، وقفت مشدوهة أمام واقع مرّ مدمر، لكنها رويدا رويدا قررت أن تجابه المرض مهما كانت التضحيات، وفي نهاية الأمر قرر الطبيب استئصال الرحم، حينها أخذ وائل في التهرب من مسؤولياته تجاهها، كان من المفروض أن يقف بجانبها لكنه بالتدرج أخذ يبتعد عنها شيئا فشيئا، وصارحها أخيرا بنيته في الانفصال عنها، وبعد أسبوع من استئصال رحم سعاد فإذا بالزوج يرسل لها ورقة الطلاق، وبعدها عاشت ليلى مأساتين: مأساة استئصال رحمها، ومأساة ترك زوجها لها دون وجه حق، فهي تعتقد منذ نعومة أظفارها على أن الحب ذوبان روحين في جسد واحد، وأن الحب إخلاص وصدق ووفاء، والحب عطاء بلا حدود، والحب شعور بالأمان والدفء، والحب إحساس قلب بقلب، كل قلب يرسل للآخر أجمل نبضات العشق وأسمى معاني الوجدان،

فهو حياة بل سعادة، والحب أفعال وليس أقوال، والحب لغته الصمت ونظراته العيون البريئة، وليس مجرد كلمات تطلقها الألسن، والحب تضحية بكل شيء من أجل الحفاظ على كل نبل وحب ووجد، هو إحساس نبيل وليس مجرد خداع، وتتبخر معتقدات سعاد في حلكة ليل همومها ومآسيها.

وتتوالى عليها المشاكل والهموم فلا تقوى على دفع أجرة البيت الذي تسكنه، أو دفع مصاريف العلاج والعيش، فوالدتها العاملة غير قادرة أن تدفع لها إلا بعض المبالغ المطلوبة، وتفرر سعاد أن تشمر عن ساعديها وتبحث عن عمل، فطرقت باب إحدى الشركات، ودخلت على المدير الذي سرعان ما أعجب بها وبمنظرها وبملبسها، حيث كانت حينها ترتدي قميصا أخضر وتنورة قصيرة لونها بيج، وحذاء بكعب عال، نظرات مدير الشركة إليها تنم عن إعجاب وشهوانية بل حدود، أشعرتها بأن المدير سيوافق على تعيينها، أحضر لها المدير فنجان قهوة، اقترب منها قليلا وأخذ يلاطفها، وشيئا فشيئا امتدت يده لتداعب خصلات شعرها، وقال لها:

أريد أن أقول لك شيئا أنت في غاية الجمال، ويسعدني أن

تكوني موظفة في شركتي.

شعرت سعاد أن باب السماء قد انفتح لها من جديد، فتهللت أساريرها، وزال ما في نفسها من الغمة ليحل محله البهجة والسرور.

في صبيحة اليوم التالي توجهت سعاد لعملها الجديد، توقعت أن ترى بعض الموظفين في الشركة لكنها فوجئت بألا موظفين هناك غيرها وغير مدير الشركة.

رحب بها المدير أجمل ترحيب، وقال لها ماذا تريدين يا حلوتي أن تشربي؟ فقالت له: الموجود. فأخرج المدير من خزانته زجاجة من العصير لم تر مثلها سعاد زجاجة من قبل، صب له كأسا ولها كأسا آخر، أخذت تحتسي العصير، وأخذ فكرها ينتقل لعالم آخر، شعرت بحرارة زائدة وبشيء لم تعهده، فتحت إزار قميصها، فظهر صدرها الغض الجميل الفتان، اقترب المدير منها ووجد في جمال صدرها ضالته، أخذ يداعبه ويداعب صاحبته، شعرت سعاد بشيء من الراحة والحنان تتغشى روحها الكئيبة، فهي متعطشة لعواطف دافئة، استمر المدير في مداعباته، تكرر هذا المشهد وهذا اللعب بينهما طيلة ثلاثة شهور، وبعدها يطلب المدير المزيد والمضاجعة، وتخبره سعاد بألا

رحم لها، فيتجهم وجه المدير ويطلب منها مغادرة المكتب نهائيا، فهو ليس بحاجة لأمثالها، تخرج سعاد وهي ليست سعيدة بعد الانزلاق والهرولة إلى الفقد والضياع، ليصبح صدرها مهوى ومطلبا لمن يريدها فيما بعد.

أما أحلام فلها ميزات خاصة، فهي ليست كباقي النساء، ففيها قسمات الجمال الجسدي والروحي، يجذب الناظر إليها بيسر وسهولة، لديها مفتاح سحري، قادرة به على فتح الأبواب المغلقة، فابتسامتها ساحرة، وبعيونها الشرقية التي شاهدت وتمعنت وحللت الأحداث وعايشت أقسى التجارب ومرّ الحياة جعلتها امرأة عصية على الرجال، هي كقطعة ماس نادرة الوجود، فالبعض يقول لها أنت حالة خاصة يصعب تكرارها، شخصيتك مميزة بجلاء، وتقول عن نفسها: فرغم مرور الأحداث وتكالبها على شخصي إلا أن الزمن زادني إشراقا وتلألؤا، فروحي العذبة تجذب إلي العيون كما الرحيق يجذب النحل، ففي يوم من الأيام وفي فرح زواج قريب لزوجها تقول أحلام، لقد حضرت من مدينة الرمثا صديقة لعائلة زوجي وكانت غاية في الجمال ومنفتحة في حديثها، ملابسها تجذب العيون

وتأسرها، قميصها أبيض شفاف وصدريتها سوداء تظهر بجلاء وتبرز مفاتن صدرها، وترتدي بنطالا أسود يبرز قوامها الممشوق، واندمجت في الحديث مع زوجي، وتجاذبا أطراف الحديث المغري وفي سهوة من أمري دخلت عليهما فوجدتهما متعانقان عناق الأحبة والخلان، غضبت وصرخت، وفي اليوم التالي أحضر لي زوجي سيارة وطلب مني الرحيل من البيت إلى بيت أهلي قائلا لي لا أريد أن أرى وجهك ثانية، كان الجو باردا وبرودة الشتاء تلفح عظمي وتصرفات زوجي تفتك بروحي، ومرارة الظلم والإهانة تملأ قلبي، وصلت بيت أهلي وكان وضعهم غير مريح، فهمهم الأول والأخير بقائي في بيت زوجي، فستيرة بنتهم ولو على حساب كرامتها لا تتأتى إلا في بيت زوجها، عادت صديقة العائلة التي كانت في عناق مع زوجي بعد يومين ليعود زوجي إلى رشده بعد نزوته، وأخذ يتصل بي ويتقرب مني ويعتذر على فعلته، ووعد بألا يعود لتكرار مثلها، فوجدت حينها أن الأفضل العودة لبيتي وصغاري، وتمضي مسيرة الأيام ويزداد الشرخ النفسي بيني وبين زوجي، أججت ثورة تنمو مع الأيام للتحرر من القيود البالية، والمسكنة التي لا تفيد غير جلب الذل والمذلة

للنفس، ولأخفي عن روحي من وهج تلك الضغوطات النفسية الخانقة التي رافقت رحلة زواجي في السنين الغابرة.
هذا البوح الذي كان يؤرقني وكان جرحاً قديماً وحديثاً في نفس الوقت .مشاعر انسانية مرت بأحلام وتمر أحياناً بالكثيرات من النساء بصور مختلفة ولكنها بالنهاية تكون صور من صور الصراع بين الأشخاص .
كثيرون من اللذين مروا في حياتنا تركوا بصمات أحيانا بصمات سعيدة وأحياناً بصمات جارحة لا مجال لمسحها .
تستيقظ مرات ومرات في نفوسنا .
حتى لو نغفر لمن يظلمنا بصمته تبقى خالدة .

في نهاية روايتي (بوح أنثى)أرجوا من جميع الفتيات المقبلات على الزواج ألتأني والعد للمليون قبل ربط حياتك بأي شخص وأن تبدأي مشوارك ببيت مستقل لو غرفه واحده فقط مش مشكله المهم الاستقلالية .

أحلام .